علاقة النص البنيوي بعلم التفسير(دراسة موضوعية في لسانيات النص القرآني)

The relationship of structural text to the science of interpretation

(An objective study in the linguistics of the Qur'anic text)

الباحث م.م وئام منعم جبار

Research submitted by M.M. Weam Muneam Gabbr

ملخص البحث

قمت بعرض قضيه تفسير النصوص من خلال عرض النص وتفسيره وفق الدلائل التي استند عليها المفسرين في استنباط الحكم الشرعي الذي يأخذ بعين الاعتبار المعنى المراد واول من تكلم به ونادى بأهميته؛ كونه يمثل القرينة الأساس في معرفة التراكيب التي تؤدي الى المعنى المنشود.

وعرض البحث تعريفا للسياق، ودوره المميز الذي اعتمد عليه كل من أراد أن يصل الى معنى محدد سواء كان في آية قرآنية أو حديث نبوي شريف أو بيت من الشعر وتبيان منزلته من بين القرائن الأخرى التي تساعد بدورها على توضيح المعنى وتوصلت من بعد هذا كله ثمت قرائن أخرى يتوجب على الباحث أم الدارس لعلم التفسير أن يستند عليها منها التناص والعلامة الاعرابية والتقديم والتاخير وغيرها من القرائن التي توصل الى المعنى المراد ولا يخفى على أحد وجودها في كتب اللغة العربية فالفضل يعود الى علمائها قديما وحديثا فما قدموه ليس بالشيء، خصوصا بعد توافد الأعاجم الى البلاد الإسلامية وشيوع ظاهرة اللحن لذا عدوا معرفة هذه الضوابط مهمة في علم التفسير، لا بل من الشروط الأساسية التي يجب أن تتوافر في المفسر الذي يروم الخوض في تفسير آي الذكر الحكيم.

mulakhas albert

yuqadim mashrue albahth dirasat tafsir alnususi, wayusalit aldaw' ealaa alsiyaqi; kawnuh min 'abraz alqarayin almueayanat ealaa fahm alnasi watafsirih tfsyraan fahu yashrah ean almaeani minhi, wa'awal man takalam bih wanadaa bi'ahamiyatiha; kawnuha tumathil alqarinat al'asasiat fi maerifat altarakib alati tuadiy 'iilaa 'ahamiyat almanshuda.

qira'at albahth fi taerif alsiyaqi, wabayan manzilatih wamajalatihi, wa'ashar 'iilaa 'ana alkathir min almufasirin eanwan bih qdymaan whdythaan, wa'anzalah munzilatah bi'iiza' alqarayin al'ukhraa, watayifatan 'ukhraa mfydaan rubama 'ahmilatuhu, 'aw tajawazat fi tawzifihi, fanataj ean hadha khalal fi fahm alnas, waqad bayn dhalik kulah bial'amthilat alqurania

wakan limufasiri alquran fadl alsabq fi alkashf ean dawr alsiyaq mimaa yazunu 'anah min nitaj aldirasat alnaashiat alhadithati, wamin mubtakarat

almadaris tahlil alkhatabi, la bal eaduuh min alshurut al'asasiat alati yajib 'an tatawafar fi almufasir aladhi yarum alkhawd fi tafsir ay altafsir alhakim.

Show less

المقدمـــــة

الحمد لله الذي اصطفى لغه العَرَبِ فَجَعَلَها أفصح اللغى واعلاها، ونَفَخَ في قوالبِ الفاظِها مِن أرواح المعاني أرَقها وَأصفاها، وبها آياتِ كتابه المجيد وَكلماتِ خِطابِهِ الحَميد إلى رَسولِه البَشير النذَير الشهيد اوحاها، وصَلَى الله على الذي تَأصَلتَ بِأمرِه أصول شجَرةِ الأفعالِ فَقامَت على ساقٍ فَتَفرّعت واشتقت مِنها فرُوع الاسماءِ وَانتشرَتَ في الأفاقِ، فَحَصَلَت بَين ذلكِ أفانين روابطِ الحروفِ فَأطبَقَتِ الأجواء غايَةَ الأطباقِ، فَأثمرت لِلعالَمينَ ثمر الحِكِم والعلوم صفوةِ النِعِم والارزاقِ أفضَلَ الصلاةِ وازكاها وعلى آله كلماتِ الله التاماتِ وحروفِ لا إله إلا الله في الرُقُومِ المُسَطرات تراجم وحيه ومصادر أمره وَنَهيه آياتِهِ المحكمةِ الكُبرى وصِفاتِه الكُبرى وصِفاتِه المكرمةِ العُليا الأئمةِ البَرَرَةِ وَالحجج الميامينِ الخَيَرةِ الذَين قدِ ارتَقَوا معارِج المفاخِرِ ذراها، واعتَلَوا مدارج الفضائلِ والمآثِرِ أقصاها وعلى شعيعتهم العلماء الحلماء والنبلاء الحكماء والسرج المسرجة الزاهرة والحجج المبلجة الباهرة والسفن الجارية في اللجج الغامرة الذين تمت بهم أركان الدين وارتفعت أعلام الشرع المبين أنار الله براهينهم وقواها وأتم كلمتهم وأعلاها وعلى الإخوان الناهجين مناهج الصدق والصفاء والدارجين مدارج الرفق والرفاء والساعين في أداء الحقوق والرعاية بالعموم والخصوص

ويقول عَبد الجاني إن المَولىَ المرجَبَ وَنظِامَ أمور العباد وَالبلادِ ناضِف اسطر الفَصاحَةِ وَراشِفَ اكوسِ البَلاغَةَ بَحَر العِلِم الذي لا ينزف غَزارَة، وَطَودَ الحِلِم الذي لا يُنسَف رَزانَة، السابِق الذَيَ لَم يَدَع شَأواً لمِتَقَدَم والسامِقَ الذي لَم يَترك مرقى لمُتَسَلِم، طَلاعَ ثَنايَا المجَدِ وَالعلى وَجَماعَ مزايَا العَقلِ وَالنهى، قطبَ دائرَةِ النباهةِ ومِحوَر كرةِ النزاهَةِ، اروَمةَ الجودِ والكَرَمِ وهناك تصوّر في بلداننا العربية والإسلامية بأن تطبيق المنهج البنيوي في دراسة النص الديني ـ ولاسيما القرآني ـ يمثل عملية منحرفة غير مستقيمة، حتى عُدّت البنيويه (اللسانية) منهجا إلحاديا يُبعد الانسان عن الإيمان والدين، وهذا وهم في التقييم وخطأ في الحكم، وربما نتج ذلك الوهم عن التطبيق البنيوي للنص الديني من خلال عزله عن صاحبه ومنتجه، وهو ما يعرف في اللسانيات والأدب وهذا لا علاقة له من حيث المبدأ بالإلحاد والانحراف، لا من قريب ولا من بعيد، نعم تطبيق هذا المنهج في بعض مفاصل المنتج الديني يوقع في إشكال لا مناص منه، ومثال ذلك لو أتينا الى النص القرآني في قوله تعالى(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[الفتح: 10]

خاصاً بالوارِدينَ ، مُغترفينَ مِنْ بِحارِ علِمِه وَحِكمتَه ما لا يُحصى، مقتَطِفيَن مِن ثِمارِ فَضلِهِ وَنعمِتِه ما لا يُستَقصى، مَكلوُئين بِكلالِئه مَحروُسينَ بَعينِ حِراسَتِه، المؤيدُ بتِأييداتِ المَلِكِ المَنانِ كهفَي وَسَندي ومولاي وَمُعتَمدي الحاجَ مُحَمدً كريَم خانَ لا زالتَ حَديقَة أفِاداتِه ناضِرَةٌ، وَمَدينَة كراماتِهِ عامِرَة، وراية هِدايتَه خافِقةً، وَشَمس عِنايَتِهِ شارِقَةً، وصَيت مَاثِرِهِ حِليَةَ المسَامِع ، وذَكِر مفاخِرِهِ زُينَة المَحافِلِ وَالمَجامِعِ، أطالَ اللهُ بقَاه وَجَعَلَني فِداهُ وَاحكَم فيهِ وِدادي وَجَعَلَهُ ذخراً لِيَومِ مَعادي، قَد أمَرَني أنَ أكتُبَ كِتاباً في هذَا الفِنَ الشرَيفِ ناهِجاً مَنهَجَ التَوضُيح وحُسنَ التَأليُفِ.

ومن هذا يتضح ان نظريه البنيويه في العربيه تؤدي مستوى عالي وَقالوا ما يُقالُ هَكذا بل يُقال كذا ، مَثَلاً الحَطَبُ بفَتحتَين لفَظَةٌ في لغةِ العَرَبِ مَوُضوعٌ بإزاء مَعنَى مَعلومِ فإن أرَدتَ مِنهُم ذلِكَ المعَنى وَقُلتَ أتوني بالِحطبِ بكسرتَين مَا افتَهموا مُرادك وَهوَ مِن أوَزانِهِم في مَوضُوعٍ آخَرَ كابِلٍ مَثَلاً وَكذلِكَ إن قُلتَ الحُطبُ بضَمَتَينِ كعُنقٍ وَكذلِكَ إن قُلتَ كصُرُدٍ وَكتفٍ وَعنبُ وعَضدٍ وَقفل وَفلسٍ وَجِسمٍ وَعُتُلٍ وَسحلٍ وَهِجفٍ وَقَنبٍ

وَسكرٍ وَبَقِم وَكل ذلَكِ مِن اوزنِهِم وَكَذلِكَ إِن قُلت بِغيرِ الاوَزانِ المذَكوُرةِ مما لا يعرفَ عِنَدهم في كِلّ ذلِكَ غَلَطوكَ، إلا أنَ تقول أتوني بالحِطَبِ بِفَتحتَين، وَكذلِكَ القَول في الرُباعي مَثَلاً جَعَفر مَضبُوطٌ عِنَدهُم بِفَتِحُ الأوَلِ والثالِثِ وَسكونِ الثاني فإنِ كانَتِ اللفَظَةُ عَلى زِنتَهِ واقتصَرِ فيها عَلَى الإعِراب رُبّما تَصَحَفَ فتصير كقُنفذٍ وَزِبرَج وَدِرهِم وَجُندَبٍ وَقَمطِر وَقِرشبٍ وَجَهَنَّمَ وَكَذلِكَ القَول في الخماسي مَثَلاً سَفَرجَل مَضبوطٌ عِندَهُم بِفَتِح الأوَلِ وَالثاني وَالرابِعِ وَسكونِ الثالثِ فإنِ كانَتِ اللفَظةُ على زِنتَهِ وَاقتُصِر فيها عَلى الإعِرابِ .

المحور الاول: علاقة اللغة بعلم التفسير

تمتاز دلالة النص القرآني بالدقة والإحاطة والشمول، فكانت هذه الدلالة الشاملة جديرة أن توحي إلى العلماء وضع مصطلحات خاصة يرمز كل منها إلى السمة البارزة في كل فكرة يدعو إليها القران الكريم، وفي كل مشهد يصوره، ومن هنا نشأ في الدراسات الإسلامية ما يسمى بمنطوق القران ومفهومه، وعامه وخاصه ، ومطلقه ومقيده، ومجمله ومفصّله وتباينت مناهج العلماء في دراستها، فمنهم من يبحثها على أساس تشريعي وهم (الأصوليون)، ومنهم من يبحثها على أساس منطقي وهم (المتكلمون) وآخرون ينظرون إلى هذه المصطلحات من منظار لغوي وهم (اللغويون) [1]، يمثل الاتجاه اللغوي الذي استخدمه المفسرين في التفسير واعتمدوا عليه اعتماداً واضحاً في تناولهم لكتاب الله العزيز الذي نـزل (لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء: 195]، ووصفه منـزله سبحانه وتعالى بقوله:(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [الزمر: 28].

هذا وقد ذكر العلماء أن هذا العلم ضروري للمفسر او هي في الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يقدم على تفسير القرآن الكريم [2] .

وقال بعضهم:(لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب)[3]، والحقيقة أن عدم التضلع في علوم اللغة العربية أفراداً وتراكيباً إعراباً واشتقاقاً يؤدي إلى الوقوع في الخطأ وإلى تحريف الكلم عن مواضعه، ولينظر إلى بعض الأخطاء التي وقعت لجماعة من كبار العلماء بسبب عدم تمنعهم في معنى اللفظية[4]؛ لهذا نرى اهتمام المفسرين في هذا العلم فاتخذوا منه أداة لتوضيح الآيات بل جعلوه من آلات صناعتهم، فنشأت عندها العلاقة بين علم اللغة وعلم تفسير القرآن الكريم للوصول إلى المقصد الأسمى في كل آية من آياته والغاية النبلى فأصبحت علاقة واجبة ومتلازمة.

وهذا دليل كبير على مقدار اهتمام أهل العربية بدراسة القرآن الكريم دراسة لغوية من جميع جوانبها، وهذا الاهتمام الكبير الواضح من هؤلاء المفسرين أحدَّ المكتبة والتراث الإسلامي بمزيد من المؤلفات التي اعتنت بالجانب اللغوي لهذا الكتاب العظيم.

والجانب اللغوي هو الذي يخصّنا في هذه الدراسة اللغوية الموجزة، وقبل البدء لابد من تحديد مفهوم (اللغة) ثم بيان علاقته بالنص القرآني وربط هذه العلاقة بعلم النص البنيوي، ولفظة (اللغة) كما تبيّنها المعاجم اللغوية على وزن (فُعْلَة) من لغوت أي تكلمت، ولغا في القول لغوا أي اخطأ، وقال باطلا، ويقال: لغا فلانا لغوا إذا تكلم باللغو، ولغا بكذا تكلم به [5].

وأما اصطلاحا فهي: ((ظاهرة إنسانية عامة، في المجتمعات البشرية كلها، وهي تتكون من أصوات منتظمة في كلمات منتظمة في جمل، لتأدية المعاني المختلفة))[6]. فاللغة لا تخرج عن كونها نظاما اجتماعيا إنسانيا يهدف إلى التفاعل بين الفرد والمجتمع وينقسم إلى مستويات فرعية وهي: المستوى الصوتي: ويختصّ بالنبر ومخارج الحروف، وصفاتها، والمستوى الصرفي : ويدرس اللغة في مستوى الكلمة من حيث وزنها، والمستوى النحوي: ويدرس اللغة في مستوى الجملة او التركيب، والعبارة والمستوى المعجمي او الدلالي: ويختص باستعمال المعاجم اللغوية، والتطور الذي يطرأ على دلالات الكلمة وأسبابه وأنواعه[7].

ومما لا شك فيه يوجد ترابط بين الدراسات اللغوية وعلم التفسير القرآني، ولعل ذلك يعود إلى (نشأة الدراسات اللغوية) وسبب هذه النشأة، هل هو (فهم) النص القرآني باعتباره مناط الأحكام التي تنظم الحياة أم هو (حفظه) من اللحن؟ فمن الباحثين من رأى أن نشأة الدرس اللغوي إنما تعود إلى حفظ القران من اللحن، ومنهم من يؤكد أن الغاية من هذه النشأة عند العرب إنما هو السعي لفهم النص القرآني، وقد أشار إلى هذه المسألة الدكتور محمد اسعد النادري حيث يقول:(ونحن نعتقد أن الرأيين يتكاملان، وأنهما معا يؤكدان حقيقة ارتباط الدراسة اللغوية بالنص القرآني ارتباطا وثيقا ، وهي حقيقة تعززها أيضا تلك الإشارات المتبادلة بين علماء التفسير والفقه وأصول الفقه، وعلماء اللغة ، اولئك أشاروا في مصنفاتهم إلى أهمية اللغة في علومهم، وهؤلاء تحدثوا عن متانة الارتباط بين اللغة والنص القرآني)[8].

وبما أن (علم لغة النص) الحديث يتعرض إلى بنية النص، والى تحليل النص كوحدة بنائية متكاملة، حيث ورد تعريف البنية في المعاجم الاوربية:(أنها الطريقة التي تتكيف بها االأقسام التي تكون مادية ، او معدنياً، او نصا له معنى)[9]، فإن النص القرآني (يفسر بعضه بعضا) وهذا ما يردده المفسرون كلما وجدوا أنفسهم أمام آية قرآنية تزداد دلالتها وضوحا بمقارنتها بآية أخرى[10]، فالتماسك البنائي الذي يعتمده علماء التحليل النصي نجده واضحاً عند علماء التفسير وخاصة عند تعرضهم (لسياق النص القرآني) الذي يعرف: (بانه فهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده، وهو ما يحيط بالنص من عوامل داخلية او خارجية لها اثر في فهمه، من سابق ولاحق به، او حال المخاطِب والمخاطبَ، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه) [11].

والتفسير بشكل عام يتحدد بجِملَة من الأمثال ذلِكَ في كتبِهِم كثيراً بَحيث لَو احياهم الله يَومَنا هذا وعَرِضَتْ عَلَيهِم كتُبهم انكروها غاية الانِكارِ إنها منهم وَلَم يَقَع ما قَد وَقَع في كتبِهِم إلّا لإهمالِهِم ذِكر الأوزان واقتصارهِم عَلَى الاعِرابِ وَلكِنَني لَم اقَتصِر على ذِكرِ الأَوزانِ فَضلاً عَن الاقتصار عَلَى الأعِرابِ بل عَقَدتُ فَصلاً في المقدَمَة وَاوَرَدت فيهِ كُلّما وَزَنَت بِهِ مِن أوّلِ الكِتابِ إلى آخِرِهِ وَبيّنت حُرُوفَها وَاعِرابَها كِيما أنِ وَقَعَ في إثناءِ الكِتابِ زِيادَةَ وَنْقصانْ او تصَحيفْ رَجَعوا إلَيها وَصَحَحّوها وَمِنها تَفسير اللفَظِ المَعروفِ بِالخَفِيّ وَغَير المعَروفِ كَقَولِ بَعضِهِم سَبَحَ فيِ الماءِ أي عامَ وَجَمَدَ الماء بلونها[12].

وقد اصطلح بعض المعاصرين على الأساليب التفسيرية الموجودة بـ(الألوان التفسيرية) أي أن الذي قامَ وَأمَثال ذلِكَ وَالصَواب أن يقال سَبَحَ فيِ الماءِ مَعروفٌ وَعامَ في الماءِ أي سَبَحَ وَجَمَدَ الماءُ مَعروف وَقام الماء

أي جَمَدَ وَمِنها تَعبير لفَظٍ بلفَظٍ عَلى سبيلِ الدور كَقَوَلِهِ العُوذَة الرّقيَة وَالرُقيَة العُوذَة وَكِلتاهما مَجهولتانِ عِندَ الأكثَرينَ وَأَمثال ذلِكَ وَمِنها تَعبيرُ لفَظَةٍ غَير مَعروفةٍ بِلفَظَة غَير مَعرُوفَةٍ أخُرى لا عَلى سَبيلِ الدّوَرِ [13].

ويلاحظ عند ابي عبيده وَاخَذتُ في المقَصُودِ مُعتمداً عَلَى التَوفيق واعَظَم اسبابي تَعليم مَولاي الكريم وَتأييدهِ وَتَشويقه وَتسديدهِ اطالَ الله بَقاهُ وَجَعَلني فَداهُ ثُم الكتب التَي اَلَفت مِنها وهي: المصِباح المنير لأحَمَدَ بنِ محَمدَ بن عَلي في غَريبِ الشَرحِ الكبَيرِ وَالصِحاح لابن نَصير إسِماعيل بن حَمادِ الجَوهري وَالنِهايَة لابنِ الأثيرِ وَمَجمَع البَحرَين للشَيخُ فَخرِ الدينِ الطَرَيحي النَجفَي والقاموس [14].

ويرى الاصفهاني أن عِلم الصَرفِ الذَي لَم يَسمَح بِمِثلِهِ أحَدٌ بِلَا اشِتباهٍ ثُمَ أعُلم إنَهُ كُلمَا امَكنَني أن أعُبرَ عَنِ الّلغاتِ بأوِضَح مّمِا عَبّروا وَأُبيَن مّمِا قَرَروا عبَرت وبينت وَكلما لَم يُمكِني أوَردتُهُ كَما عَبَروُه بلِفَظِهِ ثُمّ بَيَنتَ حُروفه وَرُبّما وَزَنهُ أيضاً كَيلا يَتَصَحَفَ في طّي الكِتابِ باستِنساخ الكُتابُ وَجَعَلتُ عَلامَةَ الجَمعُ وَالجِنِس والمَعرُوفِ وَالمعَنى الشَرعِي ش وَمِن بَدائِعِ ما الفَت إنَهَ قَد أورَدتُ الُحروُفَ المفردَة مِنَ العَوامِلِ وَغَيرها مِما كانَ مُحتاجاً إليهِ في أوَائِل الأبوابِ وَذَكَرتُ وَبيَنتُ جَميعَ شَقوقِها وَمَعانيُها كالَشَمس مُنكشَفَةً عَنِ " [15].

أما الاندلسي فقد وُجَدتَ فيهِ تَطويُل كَلامٍ وَتوُضيحِ مَرامٍ فَلا تَقدَح فيَّ لأني أرَدَت بذِلِكَ تَفهيَم أداني الطّلَبَةِ وَتَخليصَهم مِنَ العيِّ وَسَمّيتُه مِعيارَ اللغُةِ ورَتَبَتُه عَلى مُقَدَمَة وَثمانِيةٍ وَعِشرَين باباً وَكُل بابٍ عَلى ثَمانُية وعِشرينَ فَصلاً عَلى تَرتيبِ حرُوفِ الأبتَثَ الا أن يُهمَلَ في الأبوابِ جُنسِ مِنَ الفصُولِ وَخاتِمةٍ وَجَعَلتُ حَرُفَ آخِرِ الكَلِمةِ باباً وَحَرفَ أوَلَها فَصلاً ثُم رَاعَيت ما بَينَهما مِنَ الحُروفِ عَلى تَرتيبِ الأبَتَثِ أيَضاً إلّا أن يُهمل جنِسّ مِنها عَلى تَرتيبِ صِحاحِ الجَوهرَيّ نَفَعَ الله بِهِ كافَةَ الأخِوانِ مَا أختلفَ المَلَوانِ وَكرَ الجَديدانِ وَقَد آن أوان الشُروعِ في المقصودِ فَمِنَ [16].

ونرى جهود المفسرين الأوائل عندما أحسوا بوجود القراءة الخاطئة والتي تسمى لحنا فانبروا للتاليف ووضع القواعد التي يجب أن يسير عليها كل من يخطو هذا المجال [17].

المبحث الثاني: دور السياق في تحديد دلالة التفسير

إن للفظة (الدلالة) معنيين: معنى معجمي أساسي حرفي، يشير إلى بعد دلالي مجرد (عائم وضيق) في الوقت نفسه، ومعنى سياقي، فالكلمة المفردة لا تنجز مهمتها الدلالية على الوجه الأكمل إلا ضمن السياق الذي ترد فيه ولهذا السياق بعدان، الاول: داخلي مقالي وهو بعد سياقي لغوي صرف (Linguistic Context) يتأسس على وفق طبيعة التركيب او التشكيل النحوي (Syntactic Component) والثاني: خارجي موقفي مقامي وهو سياق غير لغوي يحدّد الخلفية غير اللغوية المحيطة بالعملية اللغوية كالحالة النفسية، والأبعاد الثقافية والاجتماعية والدينية وغيرها [18]، وإذا كان اللسانيون المحدثون من أمثال (Firth) وغيره قد أكدوا على ضرورة إيجاد المعنى، فإنهم قد اهتموا أيضا بوضع الفعل المميزفي إطار مجتمع بعينه، او مجموعة ثقافية او دينية او علمية او مهنية بعينها [19].

يعتمد فهم النص على مجموعه من العوامل والمعالم، سواء اكانت داخله ام خارجه، وقد تنبه لها العلماء فعرضوا لها تفصيلا وتاصيلا؛ بغيه الوصول إلى تفسير للنص يكشف عن المراد منه، إن هذه العوامل - على تفاوت بينها في الآثار والثمار - ذات تاثير مباشر على المعنى الدقيق للكلمات "وهذا امر لم يعارض فيه احد معارضه جدية"[20]، ويعد السياق من ابرز، واكثرها اثرا في تحديد المعنى؛ "لان اللغه ظاهره اجتماعيه، فيكون الفهم متوقفاً على النظر إلى الكلام في ضوء السياق"[21]، سواء اكان هذا السياق كلامياً ام غيركلامي[22].

تتسع دائرة السياق عامه، ويمتد نفوذه فيؤثر في جوانب متعددة في النص، فهو يسهم في تحديد المعنى ودفع اللبس، كما في كلمة "السائل"[23]، مثلاً ففي قولنا: "الدواء السائل اسلم للاطفال، تكون "السائل" اسم فاعل من "سال"، وفي قوله تعالى:(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)[المعارج:24 -25] تكون "السائل" اسم فاعل من "سال"، وفي قولنا: "سائِل العلياء عنا" يكون "سائل"فعل امر، ويعود الفضل للسياق في ضبط هذه الدلالات للكلمه الواحده، ودفع ما قد يتوهم من لبس.

اولا: دور (السياق المقامي) في تحديد دلالات المفسرين

لقد وضع المفسرون القدامى شروطا صارمه لمن أراد أن ينتظم في هذا العلم الجليل، وأكثر هذه الشروط يصبّ في السياق والمقام، وما يحيط بالنص القراني من ظروف وملابسات، منها:

ما يتعلق بعلم أسباب النزول: وهو العلم الذي يتناول ما نزلت الآية او الآيات بسببه متضمنة له او مجيبة عنه، او مبيّنة لحكمه زمن وقوعه، بمعنى آخر هو قصة تستمد من الواقع عرضها وحلها [24]، وعلى مستوى سياق الحال اشترط المفسرون المعرفة بأسباب النزول، والأحداث والوقائع الملابسة لنزول الآية، والخطاب الوارد في القرآن على خمسة عشر وجها :(عام، خاص، جنس، نوع، وعي، مدح، ذم) وكل منها له دوره في تحديد دلالة تفسير النص القرآني، وهذا في علم تحليل النص يقع تحت ما يسمى بسياق الموقف او السياق المقامي الغير اللغوي.

ما يتعلق بعلم الناسخ والمنسوخ: ومعرفة هذا العلم يجعل المفسّر لا يقع في الغلط والخطأ الفاحش، والتاويلات المكروهة، والنسخ على ضربين، احدهما: أن يزول حكم الآية المنسوخة بحكم أخرى متلوّة، والآخر أن تزول تلاوة الآية المنسوخة مع زوال حكمها، وتحلّ الثانية محلها في التلاوة، وهذا يندرج في علم تحليل النص تحت السياق المقامي .

ما يتعلق ببيان العلاقات التداولية: مثل التي تقع بين الآيات متجاورة او متباعدة، ومن هذه العلاقات التفسير والبيان، او ما أطلقوا عليه (التتميم) وهو أن يذكر كلامهم فيتوهم انه بحاجة إلى تفسير، فيفسّر بما يكشف المراد من اللفظ المعين، ويزيل ما يظن فيه من الخفاء[25]، كقوله تعالى:(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)[البقرة: 49].

بترك العاطف بين (يذبحون) و (يسومونكم) وبذلك يكونوا مفسرين لما قبلها من الفعل، وبهما يتحدّد المراد من العذاب [26].

ما يتعلق بمعرفة الإجمال والتفصيل: والإجمال ما يحتمل من الألفاظ أكثر من معنى ، أما التفصيل فهو تعيين بعض تلك المحتملات او كلها ، وما بينهما يمكن ان توثقهما العلاقة الموجودة فتحكم أسس الترابط الوثيق بين آيات الذكر الحكيم دلالياً وأسلوبياً ، ومن ذلك قوله تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ () فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ () وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَاولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)[الروم: 14-16] فالإجمال تفرّق الناس حين قيام الساعة، ثم عقبّ بالتفصيل بذكر قسمي الناس المؤمنين والكافرين وما عُدّ لهما[27].

وللسياق دور بارز بَضمّ الجيم وَشَدّ المؤحَدَه مَفتوحَه وَبَعدها هاءٌ في الأولى وَبِضَمّ الجيم وَفَتح المؤحَدَةَ الأولى في الّثانِيَه وَبَكِسر الجيم وَبَعد المؤحَدَه الأوُلى أَلِفٌ في الّثالِثَه وَجَبَروتٌ بَفَتح الجيمِ والمؤحَدَةَ وَضم الراءِ المُهمَلَهِ وَسُكوُنِ الواوِ وَبعدَها تاءٌ مُثَناةٌ فوقيه مَمدودَةٌه وَجَبَل وَجِبالٌ وَأَجبل بالمؤحَدَهِ وَالّلام بِفَتحَتَينَ في الأوَلِ وبِكَسر الجيمَ وَبعدِ المؤحَدَهِ أَلِفٌ في الّثاني وَبِفتحِ الهَمزَةِ وَضَم المؤحَدهِ في الّثالِثِ وَجِبلّةٌه بِكَسرَتَين وَشَدّ الّلام مَفتوُحَةًه وَبَعدها هاءٌ وَجَبَّانَةٌه بِفَتح الجيمِ وَشَدّ [28]، النون وفتح الدالِ المُهمَلَهِ ثُمَ باء موَحَدَةٌ في الأوَلِ وَبِفَتحِ المؤحَدَهِ وَزِيادَةِ هاءٍ في الّثانِيَهِ وَبِفَتحِ الجيمِ وَبَعد الّنونِ أَلِفٌ وَكَسرِ الّدالِ في الّثالِثَه وَجُوديٌ بِضَمِ الجيم وَسُكونِ الواوِ وَكَسِرِ الدالِ المُهمَلَهِ ثم ياءُ النسبَةِ وَجَوهَرٌ وَجَوهَرَةٌ وَجَواهِرُ بالِواوِ وَالهاءِ وَالّراءِ المهمَلَةِ بِفَتُحِ الجيمِ وَالهاءِ في الأول وَبِزِيادَةِ هاءٍ في الّثانِيَهِ وَبِفَتحِ الجيمِ وَبَعد الواوِ اَلِفٌ وَكَسرِ الهاءِ في الّثالِثَةِ وَجَهَنُم بِفَتحِ الجيم وَالهاءِ وَالّنونِ مُشَدَدَةً وَبَعدَها ميم وَجُهَيَنَةُ بِضَمِ الجيم وَفَتحِ الهاءِ وَسُكونِ المُثَناة الّتحتِيَةِ وَفَتحِ الّنُونِ وَبَعدَها هاءٌ وَجَيدٌ وَجَيدَةٌ وَجِيادٌ وَجَيائد بِفَتحِ الجيمِ وَكسَر المُثناةِ الّتحتِيَةِ مُشَدَدَة ثُمَ دالٌ مُهمَلَةٌ في الأوَلِ وَبِفَتَحِ الّدالِ وَزِيادَتُه هاءٍ في الّثانِيَةِ وَبِكَسِر"[29].

على الرغم من أن التفسير في عهد الصحابةه الكرام كان ذا طابع تجزيئي يُعني بتفسير المفردة القرآنية، إلا أنه لم يكن يغفل سياقها؛ ولهذا جاء تفسيرهم سليماً خالياً من الخلل بعامة، وإن لم يكن قد ورد عنهم صراحة ما يعدّ توصيفاً للسياق وتأصيلاً له، عدا إشارات قد تدل علي ما نحن بصدده، منها إنكار عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - على الخوارج، ونعته لهم بانهم شرار الخلق، حين عمدوا إلي آيات نزلت في الكفار؛ فجعلوها في المسلمين[30]،وَحساكِلُ بِالسّين المُهَملةِ وَالكافِ وَالّلام بِكسرِ الحاءِ وَالكافِ في الأوَلِ وبِفَتِح الحاءِ وَبَعد السّينِ أَلِفٌ وَكَسِرِ الكافِ في الّثاني وَحافِدٌ وَحَفَدَةٌ بالِفَ بَعد الحاءِ وَكَسَر الفاءِ ثُم دالٌ مُهمَلةٌه في الأوَلِ وَبَفَتحاتٍ وَزِيادَةِ هاءٍ

في الّثانِيَةِ وَحَكيمٌ وَحكماءٌ بِفَتحِ الحاءِ وَكسَرِ الكافِ وَسُكونِ المُثَناةِ الّتَحتِيَةِ وَبَعَدها ميمٌ في الَأوّلَ وَبِضَمُ الحاءِ وَفَتِحُ الكافِ وَمَدِ الاخِر في الّثاني وَحَاكِم وَحّكامٌ بالِفٍ بَعَد الحاءِ وَكَسِر الكافِ ثُم مِيمٌ في الأوّلِ وَبَضمِ الحاءِ وَشَدٌ الكافِ وَبَعَدها أَلِفٌ في الّثاني وَاحمر وحُمراءٌ بِفَتِحُ الهَمَزَةِ وَسُكونِ الحاءِ وَفَتِح الميمِ ثُمَ راءٌ مُهَمَلَةٌ في الأوّلِ وَبِفَتِح الحاءِ وَسكوُنِ الميمِ وَبَعَدَ الّراءِ أَلِف مَمدودَةٌ في الّثانِيَةِ وَحُمَيراءُ بِضَمِ الحاءِ وَفَتِح الميمِ وَسُكونِ المثَناةِ التَحتِيةَ ثُمَ راءٌ مُهمَلَةٌ وَألِفٌ مَمدُودَةٌ وَحمِّص وَحِمِّصَةٌ بِكَسر الحاءِ وَالَميُم مُشَدَدَةٌ ثُمَ صادٌ مهَمَلَةٌ في الأوّلِ وَبِفَتِحُ الّصادِ بِزِيادَةِ هاءِ في الّثانِيَةِ وَحَمُولَة بِفَتِح الحاءِ "[31].

ثانيا: دور (السياق اللغوي) في تحديد دلالات المفسرين

إن ما توصّل إليه جومسكي من إن معرفة التركيب شرط أساس لمعرفة المعنى، وإن معرفة المادة الدلالية سبيل إلى معرفة الصلة النحوية، مسبوق به من النحاة والبلاغيين العرب القدامى الذين أكّدوا أن الأنظمة والقوانين النحوية عنصر حاسم من عناصر تحديد الدلالة وفهم المعنى، وتهيأ لهم وضع علم النحو وسنّ قواعده ، وتقرير قوانينه في ظل المعنى، لأنهم اتخذوا من تلك القواعد سبيلا إلى فهم النصوص اللغوية ومنها النص القرآني [32]، منها: ما يتعلق بمعرفة المحكم والمتشابه: فالمحكم هو الذي يدل على معناه بوضوح لا خفاء فيه ، والمتشابه هو الذي يخلو من الدلالة الراجحة على معناه [33] مثال ذلك قوله تعالى:(وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)[البقرة: 58] وقوله تعالى أيضا:(وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)[الأعراف: 161] فقدّم (وادخلوا الباب سجدا) في سورة البقرة، وأخرها في سورة الأعراف؛ لأن السابق في هذه السورة (ادخلوا) فبيّن كيفية الدخول، وفي الاولى (خطاياكم) بالإجماع، وفي الثانية (خطيئتكم)؛ لأن خطايا صيغة الجمع الكثير، ومغفرتها أليق في الآية بإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه [34]، **ما يتعلق بظاهرة التقديم والتأخير :** كتقديم المعمول على العامل، او تقديم متعلقات الفعل عليه، وغير ذلك من ظواهر التركيب النحوي، والغاية هنا هو وصف هذه الظاهرة بانها نوع من أنواع المتشابه في القرآن، من نحو قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ)[البقرة :62] وقوله تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى) [الحج: 71]، وفي المائدة: (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى) [المائدة: 69] بتقديم (النصارى على الصابئين)، وذكر (الصابئين) بالرفع والنصب، وسبب ذلك أن النصارى مقدّمون على الصابئين في الرتبة، لأنهم أهل الكتاب، والصابئون مقدّمون على النصارى في الزمان؛ لأنهم كانوا قبلهم [35].

ما يتعلق في العدول او النيابة: وهو خروج الاسم عن صيغته الأصلية إلى صيغ أخرى ، مثال ذلك العدول عن الاسم المشتق إلى المصدر، كقوله تعالى: (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) [يوسف: 18] أي ذي كذب، ووصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه، يقال للكذاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته ونحوه [36]، وقد يعدل إلى الصفة المشبهة: كقوله تعالى : (فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)[الأعراف:64] والفرق بين العمي والعامي، أن العمي يدل على عمي ثابت، والعامي يدل على عمي حادث [37].

وكما ورد في قوله تعالى:(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)[البقرة: 231]، فالخطاب هنا للأزواج، والمراد ببلوغ الأجل: قرب انتهاء العدة؛ لأن الأجل إذا انقضى زال التخيير بين الإمساك، والتسريح[38]، فلما خير الزوج دل على أن المعنى ما ذكرنا بالإجماع.

نرى في الآية التالية أن السياق يحتم حمل المعنى على الانقضاء، وهي قوله تعالى:(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ)[البقرة: 232]، فالخطاب هنا للاولياء، والمعنى: أن الزوج إذا طلق زوجته، وانقضت عدتها، وأراد أن ينكحها من جديد؛ فليس لولي أمرها أن يمانع، فلو كان معنى بلوغ الأجل هنا المقاربة؛ لراجع الزوج مطلقته دون حاجة إلى ولي أمرها، ورحم الله الشافعي حين قال: "دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين" [39].

دور علم اللغة الاجتماعي في توجيه القراءات القرآنية: القراءات القرآنية هي وجوه أدائية صوتية (لفظية) او بنائية، او نحوية، أجيز أن تقرئ بها بعض آيات القرآن الكريم[40]، ويمكن أن نلمح في توجيهات بعض علمائنا القدامى للقراءات القرآنية سواء على المستوى الصوتي او الصرفي او التركيبي او المعجمي الدلالي ملمح من ملامح الدرس اللغوي الاجتماعي، فعلى المستوى الصوتي مثلا، يظهر التغيير في المعاني والألفاظ، وسواء أكان التغيير الصوتي خالصا بإبدال صوت مكان أخر من المخرج نفسه، أم من مخرجين مختلفين، او بتغيير الحركات التي على الحروف، او باختلاف لهجي صوتي مسمّى، فمن الواضح أن هذا التغيير احد أمرين منفردين، او مجتمعين هما: الاول، تغيير صوتي يترتب عليه تغيير في معنى الكلمة المعينة، والآخر، تغيير صوتي يشير إلى طبيعة اللهجة المعينة، وهذا التغيير نتيجة طبيعية لبيئة اجتماعية وجغرافية محدّدة كما في قوله تعالى :(إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا) [المزمل:7] فقد قرأها يحيى بن يعمر وغيره (سبخاً) وهذا الإبدال الصوتي تسوغه القرابة الصوتية بين الحاء والخاء، حيّزا ومخرجا [41].

وبما إن اللغة ذات طبيعة صوتية اولا، ووظيفة اجتماعية ثانيا، وأنها متنوعة بتنوع الأقوام والمجتمعات الانسانية ثالثا، فمن باب الاولى أن يدرس النص القرآني الظاهرة الحياتية والاجتماعية والانسانية في مستواها الرفيع العالي باعتباره منظم للحياة، فتعددت الدراسات (اللغوية)اللسانية الحديثة لهذا النص الكامل المعصوم، منها (التفسيراللغوي الاجتماعي) وكذلك (الله والانسان في القران / للمفكر الياباني ايزوتسو) الذي درس علم دلالة الرؤية القرانية للعالم.

الهوامش

القرآن الكريم

1- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلوم للملايين، بيروت، ط15.

2- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، الناشر دار الفكر، بيروت، 2010م، و روح المعاني، أبو الثناء الآلوسي، تح: علي عبد الباري عطية، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ.
3- ينظر البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، قدم عليه وخرج أديثه: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر، دار الكتاب العلمية، بيروت- لبنان، 1971م.
4- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر- بيروت، ط3، 1414هـ.
5- فقه اللغة (مناهجه ومسائله)، محمد اسعد النادري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005م.
6- تحليل النص الأدبي، محمد عبد الغني المصري، الوراق، عمان، 2009م.
7- فقه اللغة (مناهجه ومسائله)، أسعد النادري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005م.
8- علم الأسلوب والنظرية البنائية، صلاح فضل، دارالكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 2007م.
9- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلوم للملايين، بيروت، ط15، 1983م.
10- السياق القرآني وأثره في التفسير، رسالة ماجستير، عبد الرحمن عبد الله، السعودية، 2008م.
11- محمد إبراهيم شريف، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن بمصر، دار التراث، القاهرة الطبعة1، 1420 هـ .
12- أبو عبيدة معمر بن مثنى التيمي، مجاز القرآن، تح: محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة2، 1401 هـ.
13- الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، الناشر، دار القلم، الدار الشامية، دمشق- بيروت، 2009م.
14- أبو حيان، البحر المحيط، تح: صدقي محمد جميل، الناشر دار الفكر، بيروت، 2010م.
15- عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، مؤسسة علي جراح الصباح، ط2، 1978م.
16- علم الدلالة التطبيقي، في التراث العربي، هادي نهر، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011م.
17- ستيفن اولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمه وقدم له وعلق عليه: كمال بشر.
18- براون جيليان ب وج يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطني و منير التريكي، الرياض، جامعة الملك سعود، 1418هـ/ 1997م.
19- نهاد الموسى، العربية نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000م.
20- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلوم للملايين، بيروت، ط15، 1983م.
21- علم الدلالة التطبيقي، في التراث العربي، هادي نهر، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011م.
22- الكشاف، للزمخشري، دار الكتاب العربي، مصر، لا ت.
23- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الدار البيضاء، دار الثقافة، د.ت.
24- محمد سليم الحواء، تفسير النصوص الجنائية، ط1، جدة، عكاظ، 1401هـ/ 1981م.
25- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تح: عبد المنعم إبراهيم، ط1، مكة المكرمة، مكتبة الباز، 1418هـ.
26- محمد بن جريرالطبري، جامع البيان عن تاويل أي القرآن، تح: محمود شاكر، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
27- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط21، بيروت، دار المعرفة، 1391هـ.
28- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلوم للملايين، بيروت، ط15، 1983م.
29- الكشاف، للزمخشري، دار الكتاب العربي، مصر، لا ت.

30- محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التاويل، عناية محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، د.ت
31- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، 2006م.
32- إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، دار ابن عفان، 2007م.
33- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول، تح: أبو حفص سامي ابن العربي الأثري، دار الفضيلة- الرياض، ط1، 2000م.
34- محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، ط1، القاهرة، مكتبة وهبة، 1399هـ.
35- عبد السلام بن العز، الإشارة إلي الإيجاز في بعض أنواع المجاز، دمشق، دار الفكر، د.ت.
36- التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية، هادي نهر ، الكتب الحديث، عمان، ط1، 2008م.